



نَبِيضٌ لَا يَمُوتُ

بقلم : فاطمة العيسى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَاتِمَةٌ

(الرحمن . علم القرءان . خلق الأنسان . علمه
البيان . النجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها .
ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان . وأقيموا
الوزن بالقسط . ولا تخسروا الميزان . والأرض
وضعها للأنام).

الحمد لله وحده مالك خزائن السماوات والأرض
يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بيده الخير إنه
على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على الهادي
الأمين المبعوث رحمة للعالمين اللهم صل وسلم

عليه تسليما كثيرا إلى يوم الدين وآل بيته وأبي بكر
وعمر وعثمان وعلي وصحابته ومن اتبعهم بإحسان
إلى يوم الدين.

كنت أعيش مع أخبار الأسرى وأتتبع أحوالهم
وحاولت أن أنشر هذه الرواية التي كتبت كثيرا منها
بدمع العين قبل خط القلم منها ما كان واقعا ومنها
ما كان من نسج خيالي الذي تبين لي واقعته
لاحقا، حال الأسرى من المسلمين والمسلمات
أثارني كثيرا لأنشر هذه الرواية وما يحدث اليوم من
انتهاكات للمسلمات والمسلمين في السجون كانت
دافعا كي لا أتأخر أكثر في نشرها ..

المقدمة

كتبت كلمات كحروف متقطعة ..مفرقة في سطور
الحياة لا تكاد تجتمع لتعبر عن ذاتها أشبه ما تكون
فاقدة المعاني لأن القلم مهما خط من كلمات لن
يصف الجرح في القلب بعواصفه العاتية ورياحه
الشديدة وغضبه المتفجر كالبركان بكلمات ليست إلا
حروفا في بحر الألم وجرح القلب المنكسر ودمع
العين الحزين ..إنها رواية تجسد حقيقة المشاعر
المتألّمة والنفس المعذبة ومعاناة الروح والجسد..
تحكي فيها الكلمات جزءا من معاناة الإنسان..
ويبقى إحساس الأسير بمعاناته وألمه أبلغ وأعظم
من كل الكلمات التي تسطرها الأقلام وتظل الذكرى
المؤلمة في حياته ظللاً لا يفارقه حتى يواريه

التراب.. وليعذرني الأسير إن أمسك كتابي بيده ليقراً
فوجد أنني قد أغفلت حقائق ووقائع كثيرة عانى
منها فلقد رضيت بالقليل على غير رضئ من نفسي
كي لا تكون ثقيلة على النفس بمعاناتها ، وآثرت
أن تكون في طي السطور فيرى القارئ جانباً من
العالم مخفياً عن أعيننا وليكن حاضراً في حياتنا
ولننفض عن أنفسنا الغبار ونرى جزءاً يسيراً من
معاناة الأسير الذي لم نفيه حقه..

ذلك الأسير الذي رافق ليلى الطويل وتبادلت معه
الرسائل، ينقلها إليه نسيم الليل الحالك.. ولنأخذ
وقفه على شاطئ البحر الحزين الذي يسمع أنينه
الليل والنهار فالشمس تشرق وتغيب على أنينه
ولكن أمن سامع من بين بني البشر؟

فاطمة العيسى

الفصل الأول

أسرَ الإحتلالُ أرضي والبشر... والأرضُ تأنُ سوياً
من أقدام صهائنة يدنسون ترابها الطاهر وكلُّ يومٍ
تشرقُ وتغيبُ الشمسُ على الوردِ والأنينِ الذي
يملاً القلوبَ حيناً إلى نصرٍ عزيزٍ.
ومن الأنينِ والشروقِ إلى الأملِ الذي لا يغيب
نسمعُ تكبيرِ الفجرِ اللهُ أكبرُ ينقلنا من سجودٍ
ومناجاةٍ ليلٍ طويلٍ إلى فجرٍ يشرقُ بشمسٍ لاتغيبُ
مادامت تشرقُ في القلوبِ بنورٍ يضيءُ الأبصارَ
ويغمزُ الأرواحَ ، نوراً يضيءُ الدنيا كالشمسِ تملأُ
الأرضَ ضياءً والقلوبَ حباً لله فهذا النورِ الذي لا
يأسرُ... والروحَ التي لا تدنسُ والطهرَ الذي لا

يُمنَس...

الحب الذي يلامس الروح ويتجانس معها ويفارق
معها الجسد حين تفارق ، هذا الذي لا تحوّل بينه
وبين أن ترقى روحه إلى السماء قضباناً أو جدران،
قلّب إن اخترقته رصاصة كان في أسعد لحظاته
وكان في سعادة لا خوف فيها يتلقاها بفرحة
المشتاقين طائراً إلى ربّ يحب المشتاقين ويرضى
عن المحبين.

بعد الصلاة ونور كلمات الله عادت الروح من
السماء قد روت ظمأها وازدادَ شوقها للرحمن شوقاً
بلقاء الحبيب في مناجاةٍ وخشوع ، عادت نور
ليكون جسدها أرضياً وروحها سماوية، كساها
النور الذي يملأ قلبها جمالاً ، خرجت تسير في
طرقات المدينة قاصدة مدرستها حيث تعمل وكان

عليها المرور على نقطة تفتيش العدو التي تفصل
شرق المدينة عن غربها وأخرجت أوراقها للجندي
فنظر للأوراق التي بين يديه يقلبها بتوترٍ ظاهرٍ ثم
ينظر إليها ونظراته تخبئ شيئاً وراءها ، لكنّ الغدر
والمكر لا يخفيان على أحد.

أما نور جثم على صدرها إحساسٌ مظلمٌ يكتُم
أنفاسها ويزدادُ ظلمةً كلما نظرت إليه ، قلب الأوراق
من جديد ، وصمتٌ سيهلكها ويوقف قلبها ، ثم
يقطع الصمت بصوت خفيض ما اسمها وأين
عملها...

وكل ذلك في أوراقها وبين يديه ، تتساءل في
نفسها ما الفرق بين الأمس واليوم ، كل يوم
أتجاوز النقطة من دون أسئلة ، نظراته الماكرة تثير
الريبة والشك ورغم خوفها إلا أنها ترمقه بشجاعة

وبلسانٍ صامتٍ وعينين ناطقتين تقول لن تملك هذه
الأرض ولا أهلها وسيأتي يوم تعاد فيه صياغة
القوة والضعف وترى من أبناء هذه الأمة مالا يسرّك
إلا أن تكون تحت الأرض التي تقف عليها ،
وانتزعها من بين أفكارها على حقيقة أن خوفه
أقوى من شجاعته فهو من يملك القيود .
ومن دون سابقة جرم أخذت من حريتها إلى قيوده
وفي لمحة بصر كانت يداها خلف ظهرها تقيدان
بالقيود وعين الماكر تنظر إليها أتبدلت نظرات
الشجاعة تلك بدمعة خوف أم أنّ الثبات قد اهتز ،
لا لم تتبدل بدمعة خوف ولم يهتز ثباتها ..
وكان وراءها فتية استشاطوا غضباً حين رأوه
يأسرها ولكنهم في موطن الضعف فلا سلاح بين
أيديهم ، وكنتموا غيظهم ، ليكلموه بهدوء علّه يقبل

بأن يأخذ أحدهم مكانها وما كان لهم ذلك فهي من يريد.

الغضب يزداد والأعين تتأجج ناراً وهو غير آبه
لكلامهم واجتمع الجنود يحولون بينهم وبين الفتاة
وهو يجرها إلى العربة وينطلق بعيداً والأمل يموت
في عينيها لعلهم يخلصونها من بين يديه وما كان
بأيديهم شيئاً أمام سلاحهم ودبابتهم إلا الحجارة .

الفصل الثاني

انطلقت العربية بنور إلى عالم مجهول وعينها باتت
حزينة تخفي دمعها عن العدو وقد خُتِمت المعركة
بأسرها وقلبها يسأل ربها الثبات ، والمسافات لا
تدري أقرية أم بعيدة عن عالم لا يسكن فيه الليل
ولا يهدأ ، يصرخ ويتأوه من عذاب ساكنيه
كم مرة نشتكى من أمرٍ مجهول الهوية يداهنا في
لحظة..... يزعزع دواخلنا يرسلنا إلى صحراءٍ
مقفرة بمشاعرٍ غريبةٍ عنا وإن كانت منا لأنها تعبر
عن ألمها وغربتها في وحدة صحراءٍ غريبةٍ بالفعل
هي عنا.....

العربية توقفت وفتح بابها ووطأت أقدامي أرض
المعتقل والجندي يأمرني بالتحرك أمامه ولكني

متوقفة في مكاني فأقلامي وكأنهما من حديد
يثقلاني عن الحركة ، فأمرني مرة أخرى بالحراك
ولكني حيث أنا وحين لم يرى مني حراكاً أخذ يجزني
جرّاً إلى داخل الثكنة العسكرية وأوقفني في الخارج
، ودخل إلى غرفة صغيرة وتحدث مع أحدهم كلاماً
لا يصلني وضوحه ثم جرنني إلى ساحة صغيرة ثم
إلى أبواب ودهاليز مظلمة حتى أوقفني عند غرفة
فتح بابها ودفعني إليها وأغلق الباب ...
أظلمت الدنيا وظلالاً أسودّ ، يلتفُ حولي، يطغى
على المكان ، تنتهي حياة من حيث بدأت ...
وتظلمُ بعد أن أشرقت ويضيع معنى بعد أن يولد
معنى غائب... يولد وراء قضبان يصعب تخطيها إلا
بغيب روح عن حياة مظلمة، أدورُ من حولي ...
أبحثُ عن مكانٍ ألقى فيه وجودي في هذه الحياة

فأضيعُ بين مبادئ ليست بمبادئ وأتوه عن حُلْمٍ
مُنْعٍ عن أن يكون حقيقة...إرادة جسدها لتكونَ
مثل الجبال لكنها حُبست عن السماء ..
فأين يلوح الأمل ! ...

انظرُ عن يميني فإذا بفتاة فاقدة الوعي على
الأرض، وأخرى تجلس عند رأسها تحاول أن تسقيها
قطرات من الماء... ثم رفعت رأسها ونظرت إلي
قائلة: السلام عليك أختاه، مازال نظري يطوف في
المكان مذهولاً من حقيقة ما يجري، فخرجت
الكلماتُ من فمي ثقيلة ترد عليها السلام فحلقي قد
جفَّ لا يقوى على الكلام، وما أصابني بادٍ على
وجهي فلوني شاحب وأنفاسي قد ثقلت ويتها لي
أن الهواء حُبسَ عني كما حُبستُ عن نفسي في
هذه الزنزانة المبعدة عن الدنيا بأسرها ...

الفصل الثالث

ينزلُ الدمعُ صامتاً على خديّ والصمتُ أثقلُ لساني
فلم يعرف للكلام طريقاً... والكون سكن من حولي
بصمت.....

أسمعُ صوتاً يحدثني أختاه اجلسي حتى تهدأ نفسك
فأفئقُ من ذهول الصمت وتجتمع الأحرف على
لساني بضعف لتقول لا أستطيع!.....

فردت عليّ : بلى تستطيعين اجلسي وآتيك بكوب
من الماء وجاءتني بالماء تسقيني منه لكني لم
أقدر أن أتجرّع إلا القليل ، فيداي مكبلتان بالقيود
وجسدي يرتجف كالشجرة في يوم عاصف
يعاني الوحشة والظلمة والبرد

نظرت إلى عيني قائلة : لا إله إلا الله تزيح الهم

وتكشف الغم ، لا إله إلا الله لو كانت في حلقة
لفصمتها ، ولو كانت في حجر لفجرتها ، تنزل
عليك سكينه من الرحمن ، وتثبتك عند البلاء
وتذكرك أن الله معك أينما تكونين ، ثم ذهبت إلى
الفتاة الأخرى تضع يدها على جبينها وهي تصيب
عرقا وتبلل خرقة صغيرة بالماء وتمسح وجهها ،
أخذت أردد لا إله إلا الله وأنظر إلى المكان من
حولي مظلم ... سجن ضيق.... يحمل الألم
والأسر والظلم بين جدرانهم..... كل منا يجلس في
زاوية فتاة الموت أقرب منها للحياة ، وفتاة
تطرق مفكرة ترى عن يمينها وشمالها فتيات في
عمر الزهور أسيرات.....

بدأت نفسي تسكن بين أضلعي، وأكثر ما راودني أن
أسألها عن الفتاة بعد أن بدأت أجمع شتات نفسي

فقلت لها: اسمي نور..

فردت علي : أنا إيمان وهذه هدى

فسألتها بدون تردد: ما بها ؟

فقالت: إنها مريضة ولا يوجد علاج هنا وحالها يزداد
سوءاً.

فقلت: من التعذيب ؟ فأطرقت صامتة وهزّت رأسها

بإيماءة المقهورة .. نعم ... نعم من التعذيب ...

هاهم أصحاب العالم المجهول، هؤلاء المعذبون

حتى الموت..... حتى الشهادة في أرض المعركة

لكن معركة بلا سلاح

ليت الدنيا تتغير..... ليت الأرض تنقلبليت

الأرض تدفن من عليها من البشر ولا يبقى الحال

على ما هو عليه.....

لا تسأليني لما ؟ ! ... لو فتحت قلبي لوجدت
جراحاً لا تبرأ ووجدت كسراً لا يجبر
ولووجدت روعي مسجونة في صدري
من قبل أن أُسجن ... فمن يداوي جراح قلبي ..؟..
من يحرر روعي من سجنها .. ؟ ..
من يطلقها لتطير بين سحب السماء مثل بني
البشر... ؟ ...
ثم كان الصمت حليف المكان لكنه لم يكن حليفاً
للنفس وجاء ذكر يوسف وانتفض قلبي.....
وضعت روحك في قلبي وغادرت وسجنت روعي
برحيلك وهجرت..... ووجدت ما كنت تجد
وأنت الذكرى بك يوم أن كنت تموت في هذا المكان
سنيماً وأصبحت الذكرى واقعاً أعيشه وإحساساً
أترجع غصاته.....

أخرجتني إيمان من حديث النفس قائلة لي:
لا تدعي الألم يضعفك والسجن يهزمك حتى يرميك
إلى شاطئ بحرٍ أسود لا تجدينه على هذه الأرض
إنما بأرواحٍ تسكنها...

من ترينها اليوم ممدّةً أمامك وقد أقترَبَ رحيلها
قالت لي كلمات لا أنساها أبداً وكنت يومها حزينة
مثلك: لا تحزني... كم من مرةٍ حيننا وكنا نظن أننا
لن نحيا.... كم من مرةٍ لم نحيا وكنا نظن أننا
نحيا... تحت القنابل والرصاص يصمُّ الآذان
ونأبى إلا أن نعيش

قال تعالى (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو
مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) رضى وتسليم
بإرادة إلهية من دون استسلام أو ضعف...
فقلت: إنها حقاً كلمات رضى حين تغرز في القلب

تمحو معها كل مشاعر الضيق و الألم....
لكننا عشنا في الحياة بجرح غائر.. وأسىّ بالنفس
حتى غدا الحزن كظلنا لا يفارقنا إلا وقد ترك فينا
ظلاً خفياً لا نراه من الحزن والأسى وكأنا اعتدنا
عليه .. فما عدنا نستطيع العيش بدونه.. وبقينا
نذوق الموت في هذا الأسى طوال يومنا.. وما نملك
إلا الحلم.. يعيش الحلم معنا ويسكن فينا جميلاً ثم
نظلّ نحلم حتى يكون حلمنا ليس إلا ذكرى..
وفجأة.. فقدنا الحلم فضاعت منّا سعادته وما عاد
الحزن إلا أسىّ طويلاً عاش ظلاً لنا طوال هذه
السنين ..
فردت قائلة: لن يضيع مادام فينا قلب ينبض، ثقي
بالله ..

الفصل الرابع

وما كادت تنهي كلماتها حتى قطع صوت الأقفال
الحديث ودخل الجندي يسحبني لأقف وقطع الوقت
وكلمات مجهولة ماتت على شفيتها كانت ستشد
من أزي في مصير مجهول ينتظرنى بين الدهاليز
والغرف المظلمة....

أدخلني إلى غرفة معتمة إلا من ضوء خافت يتدلى
من السقف ورجل مغلقاً الباب وراءه وصوت الأقفال
يغلق النفس وكأنها أبوابٌ تلو أبوابٍ ومرّت الدقائق
كالساعات والساعة كدهرٍ يمضي لا تدري ما فيه
وما وراءه، جالسةً على كرسي بارد وكأنه كرسي
الزمن يقلّب صفحاته بهدوءٍ مابين ماضٍ وحاضر
ومستقبلٍ معلق بين حقيقةٍ مرّةٍ أعيشها وأخبارٍ عن

أبواب مغلقة يُحكى عنها في النهار فتجعلهُ ليلاً
مظلماً بلا قمرٍ أو نجومٍ تلمع في سماءه ...
وبينما الأفكار تدور في رأسي إذا بالباب يُفتح وظلاً
يقف أمامي فالغرفة معتمة مظلمة لا تكاد ترى منها
شيئاً وتوتراً يطغى على كياني أحاول إخفائه ،وإذا
بصاحب الظل يجلس أمامي ويضع أوراقاً على
الطاولة ومن صاحب الظل حين وقع عليه الضوء
الخافت إنه الجندي الذي اعتقلني .. !
نظر إليّ ونظرت إليه ولم ينطق بكلمة وكأنّ
الساعات التي أمضيتها على الكرسي وطول
انتظاري غير كافية لنفاد صبري بل بدا لي أنه يريد
أن أفقد أعصابي من الخوف وتذهب شجاعتي
أدراج الرياح، حينها أبصرت حقيقة مصيري المننظر
بأمّ عيني... فكان لا بد أن تكون شجاعتي أقوى

من خوفي وأخيب أمله في التغلب عليّ فالمصير قد
تقرر وانتهى الأمر وجاءت المواجهة الحقيقية ..
وأبقيت الصمت قائماً في المكان حتى يضع له
نهاية حقيقية الصمت حاضر على الألسنة
ولكنّ الأعين تتكلم بمواجهةٍ قد تكون أحياناً أبلغ
من وقع الكلمات على الأسماع..... حتى خسر
المواجهة في أولها ونفذ صبره ووقع الكلام في
المكان.....

سألني : ألا يهم أن تسألني عن مصيرك ؟
لكن الكلام لم يعرف طريقه إليّ وبات خوفي الذي
في قلبي يسيطر على جسدي ولساني سوياً فلم
أعرف الكلام وكأني طفلٌ صغير يحاول أن يجمع
الكلمات المبعثرة التي في رأسه لينطق بها على
لسانه..... ثم عاد يسأل من جديد

لقد سألت سؤالاً وأنتظر الجواب ولا صبر لي على الصمت .

أحاول أن أتنفس الهواء ولا هواء في هذا الحيز الضيق من الوجود وأقتل النفس التي في داخلي من أن تطلق للدماغ مجراه وتبكي حتى تصيح الأرض من تحتي من دمعي الكسير وألمي الجريح وأخرج من فمي كلمات تجاري الهمس في صوتي الخفيض....

فقلت : بلى يهمني مصيري .

فقال : أنت متهمة بالاعتداء على جنود نقطة التفتيش وعدم الامتثال للأوامر في الاعتقال .

فقلت : متهمة بالاعتداء ! بماذا ولما !؟

فقال : تم توقيفك لأن أوراق العبور غير كاملة لكناك رفضت التوقيف وحاولت العبور بالقوة .

فنظرت لا أعرف ما أقول اتهامات لا أصل لها
وعليّ أن أردّ على ماذا ؟ لا أعرف ، على أي كذبة
؟ لا أدري ، وما نفع الردود إن كانت الأحكام قد
أصدرت مسبقاً فلم أعلم عن أحد أعتقل وخرج من
العدالة الممارسة هنا

فقال: لقد أخبرتك مسبقاً أنه لا صبر لي على
الصمت وصمتك يطول عند كل سؤال أريدُ الجواب
سريعاً حين أسألك.

أم تودين أن استخدم طريقة أخرى معك في
التحقيق.

بدأت شجاعتي تجتمع فالمصير هنا واحد والأحرف
تريدُ أن تخرجُ من فمي تصرح عما في داخلها
بدون خوفٍ أو تردد.

فقلت: الصمت طال لأن السؤال ملئنا قليلاً.

فردّ : وكيف ذلك ؟

قلت : كيف أستطيع الاعتداء على ثلاثة جنود

بأسلحتهم ودبابتهم ، بماذا بيديّ ؟

فقال ببرودٍ قاتل : وماذا عن السلاح الذي في

حيازتك وتم مصادرته منك عند الاعتقال .

فقلتُ ببرودٍ مماثل : أتعلم أنني لو كنت أملك

سلاحاً لحظةً اعتقالي لدافعت به عن نفسي وما

كنت في هذا المكان أبداً .

وضع الأوراق أمامي وقال : هذه أوراق اتهامك

واعتقالك قد ختمت عليها القيادة العسكرية لكن من

الممكن إبرام اتفاق معك فتتم مراعاتك بالأحكام

الصادرة بحقك .

قلت : أو تظن أنه من الممكن أن يكون بيننا

اتفاق ؟

فقال : هنا لا توجد الخيارات إما تسمعين أو تتم
محاكمتك بأرقام لا تقوين على سماعها ، إن كان
يرضيك أن يصدر بك حكم مدته خمسمائة سنة بعد
أن أوسع دائرة الاتهام فلك ما تريدين.....
أتودين أن تسمعي الآن ؟
قلت : قل ما تريد .

قال : يوجد منظمة مقاومة في حيك والمطلوب منك
معلومات عن أسمائهم ومكان اجتماعهم وهذا
موازنةً مع حريتك.

قلت : لكني لا أعلم شيئاً عن المقاومة.
قال : ما أعرفه أن أبواك كبيران في السن وأنتِ
ابنتهما الوحيدة وهما تحت رعايتك وقليلاً من الجهد
والبحث بإمكانك الحصول على المعلومات

المطلوبة.

حين سمعتُ كلامه وكأنّ مطرقة من حديد ضربت
رأسي كادت أن تفقدني الوعي إنه يطلبُ مني أن
أخون مقاومة أرضي الطاهرة.
نسي أنه محتلُّ لأرضي وبالمقاومة التي يريد مني
خيانتها لن يكون له وجودٌ على أرضي ، أمّا والديّ
الذي يهددني فيهما فلهما ربّ يرحمهما فيّ وبدوني
وما كان صمتي إلا ذريعةً لغضبه فسحبني من على
الكرسي ووضعه الأوراق في وجهي .
وقال : أترين هذه التهم أستطيع أن أزيدها حتى
تكوني إحدى أفراد المقاومة التي هدفها تحرير
الأرض والارهاب.

فقلت: إن الواقع يبدأ حتماً ثم يكون هدفاً يتبعه

الجهد ليكون حقيقة ملموسة على الأرض.
فرد قائلاً : سأتركك تفكرين ولكن من أنظمة
المعتقل أن لا حجاب لدينا فاخلعيه أو أخلعه .
فقلت : وما شأن حجابي بالمعتقل.
لكن لم يكن لكلماتي صدى في المكان لكنّ صدى
فعله أقوى وخلعه بقوة من دون أن يسمع مني
شيئاً يريدُ ذلي وهواني يريد قتلي حية
أذاقتني غصة الموت وهو يمزقه بيديه وكأنه ينتقم
من آدمي من لحمٍ ودم
مزقهُ ورماه على الأرض ووضع قدمه عليه
آهاتٌ من الألم اكنمها في نفسي تنزعُ الروح من
الجسدِ انتزاعاً ودمعُ قلبٍ يذرفُ في صدري كطغناةٍ
غادرٍ لكرامةٍ وظهارةٍ دُنست وكسراً لِنفسي المسلمة
التي سلب منها جزءاً من عفتها ونورها الذي يغطي

أي ظلمة على وجه الأرض وإن كانت ظلمة سجون
الاحتلال .

قاومتُ بضغفي قوتهُ .. وإحساسُ قوةِ يتملُّكُ
كياني .. يتشبعُ في جسدي .. فغضبي وإيماني
أقوى من قوته فالضربات واللكمات كانت فيه أو
بالهواء تبقى ضعيفةً أمام وحدتي واجتماع قوتهم ..
فدخل جنديان آخران يساندنه وكأني مجموعة
تحتاج إلى قوة مساندة للتغلب عليها فلا أدري
حينها من أين تأتي الضربات واللكمات كأنها بأيدي
من حديد تهشم هذا الجسم الضعيف .. تنتقم منه ..
تقضي على هذه القوة التي حاولت أن تقاومهم
ولتثبت لها أنها القوة الوحيدة هنا لا ينازعها فيها
أحد ولا يجروء على ذلك أحد

الفصل الخامس

حين بدأتُ أفقدُ الوعي أخذاً يجراني من المكان
الذي علقتُ فيه روحي الممزقة يسحباني إلى
الممرات المظلمة أجزّ الخطى حتى وقفت الأقدام
عند باب صغير، فتح الباب ودفعني إلى الزنزانة
وأغلق الباب وأحكم الأقفال وكأنّ لي من مخرج
أهرب منه ، نظرتُ من حولي فإذا المكان غير
المكان ولا أحد هنا غيري.....

مكانٌ ضيقٌ لا يسعني حتى الجلوس فيه صندوقٌ
أسود مظلم ، إذاً هذا ما عناه باتخاذ القرار أن أرى
أنواع العذاب وصنوف الألم الجسدي والنفسي حتى
يكون القرار كما يريد .
الدقيقة تمرُّ دهرًا

مشغولة بالمي ما عدت أحتمل الوقوف ويدي

ستتمزقان من شدة الألم والقيد كأنه في رقبتني ،
شئ عظيم يخنقني يجتاح جسدي لا أعرف
كيف قضيا والداي الليلة ، ماذا حصل لهما حين
علما أني أسرت ؟

من يحنو عليهما وهما في هذه اللحظة يبكيان ؟
يا رب إنني أناجيك مناجاة الضعيف الذي لا حول له
ولا قوة إلا بك..... الذي انقطع رجاءه إلا منك الذي
يراني ويسمعي ويرى والداي ويعلم حالهما
ويرى مكاننا ويعلم فرقتنا وشتاتنا ودموعنا وحاجتنا
ووجدتنا وغربتنا أسألك اللهم أن تثبتنا على
الحق وتجعلنا أقوياء وتعيننا على البلاء ولا تفتنا
في ديننا..... يا رب يا من تعلم ما تخفي الصدور
وما تعلن أودعك يا رب السماوات والأرض والدي
فما لي ولهما أحداً سواك فمن للخوف الذي

في صدري ؟ ومن للألم الذي في جسدي ؟ ومن لي
غيرك بساعاتٍ لا أعلم ما يكون لي فيها إلا أنت .
وبقيت أصارع الألم والساعة تمر تلو الساعة تمر
والبكاء يأخذني لأنهاره فأغرق فيها تارة وأخرى
تجف الدموع وتبقى مجاريها على الخدود تحكي
حكايتها .. ثم يمر اليوم الأول أو الثاني لا أعلم
فأنا في وحدتي وألمي وعذابي ، أفعل أيّ شئ
وأجلس لحظة لقد أشتدّ الألم ولا أعرف ماذا أفعل ،
حلقي قد جف من العطش والجوع يطوى بطني
والظلمة حالكة فلا أدري أليلاً أم نهاراً والهواء ينتهي
دقيقةً وراء دقيقة فلا يوجد منفذ ولا فتحات في
الجدار يدخل منها ضوء أو هواء إعدادم مؤقت
تهديدٌ صريحٌ بالموت ، لقد كنت أحتقن دائماً من
الأماكن الضيقة ولا أحبُّ أن يقفل علي باب وأتى

يوماً أودع فيه بصندوق مظلم ضيق مقفلة أبوابه
إلى وقت غير معلوم ليزيد العذاب عذاباً
بعد مضي وقت طويل أجهل قدره سمعت صوت
الأقفال وفتح الباب ودخل ضوء كاد أن يعميني
فأغمضت عيني عنه وإذا أسمعته يأمرني بالخروج
فلم أستطع أن أتحرك فجسدي أصبح كالخشب
وكأنه جاهلاً بما سيكون عليه جسدي لكنه يجد
لذته في عذاب الآخرين فسحبني من صندوق
الظلام فما احتملت رجلاي أن تمشي فوقعت على
الأرض لا أستطيع الوقوف ولا أستطيع أن أثني
ساقاي ولا أحركهما إنما أشعر بألم شديد عبرت
عنه بالدموع تتساقط على الأرض فكيف أستطيع أن
أصفه وأبيّ كلماتٍ تحوي ذاك الألم وتلك الدموع وأي
كلماتٍ تصفُ فرحهُ وسروره وهو يشتمني ويأمرني

بالنهوض فلما لم استطع حراكاً أخذ يركلني بقدمه
ويضع قدمه على ساقي بقوة يسحقها وأنا أكتم
صرخة وأخرى يعلو بها صوتي وكلما كتمت صرخة
سحق ساقاً بقدمه وأخرى يركلها بقدمه الأخرى ثم
أخذ يركلني ويركلني في كل موضع من جسدي ثم
وضع قدمه على وجهي يسحقه بين قدمه وأرض
أمتزج ترابها بدموعي ثم بدمي، ثم أخذ بأقدامي
يسحبني على وجهي في الدهاليز حتى أدخلني
غرفة لا أستطيع أن أراها من الدماء التي تتساقط
على وجهي ، ولم يكتفي بما فعل إنما وضع كيساً
أسوداً على وجهي يخنقني به حتى لا أستطيع أن
أتنفس وحين أشعر أنني سأموت يفكني ، ثم يعود
فيخنقني حتى الموت ويفكني فلا يريد للموت أن
يرحني من هذا العذاب ، إنما يريد أن يعذبني

فأتمنى الموت ولا أناله.

وبقيت بين الموت والموت أدوق الموت فلا أجده
وهو أقرب ما يكون مني ، حتى شعرت أنني سأزهق
أنفاسي الأخيرة وأني لن أحتمل أكثر حينها تركني
حتى لا أدوق الموت ولكن أتمناه على العذاب الذي
سيصيبني وينتظرنني ، وفكّ القيد وأنا لا أدري ماذا
يفعل فما زلت أطلب الهواء داخل هذا الكيس ،
فربطت بسلاسل وسحبت إلى الأعلى فيداي معلقتان
بالسلاسل من فوق وأقدامي تتدلى لا تلامس
الأرض ثم عمّ الصمت يكسره صوت الأقفال .
فبماذا أشعر بأي ألم وبماذا أبكي بالدمع الذي
يسيل أم بالدم الذي يجري وأطلق آه متقطعة ،
أطلبُ الهواء فلا أجده بكيتُ وبكيتُ من ألمي وذلي
وقهري وانقطعت الآهات ليحل الصمت مستسلماً في

المكان وانقطع حديثي مع نفسي فما عادت
الحروف تجتمع لتعبر وباتت صامتة تجاري أنفاس
الموت .. وغابت الشمس التي لم تشرق على
جدران الزنزانة المظلمة وغدا ليلها المتشح بالسواد
هادئا لا تدري ماذا يخبأ وراءه ومضى الليل معلناً
آهات قاطنيه بدقائق صامتة وصرخاتٍ مكتومة
ودماءٍ متساقطة كالمطر ودموعٍ جفت ينابيعها
وأشرق ليل النهار بغياب نور الشمس عن معتقل
الموت والساعة تلو الساعة تمضي والمجهول
يسلك بنا طرقه الطويلة والشائكة ويمضي بنا في
غموض مميت ..

الفصل السادس

ومضى الوقت يكتنفه الغموض، بطيئاً لا تدري ليله
من نهاره ، وتمائلت الساعة بالدقيقة والوقت أصبح
محسوباً بالألم ، متوقفاً لا يمضي إلا بزوال الألم
وأنى لهذا أن يكون ، الألم يزدادُ شدةً، لا أرى شيئاً
أحرّكُ يداي عبثاً أحاولُ أن أفك القيد ألمس
السلاسل لكني لا أستطيع شيئاً أحاولُ وأحاول حتى
ماتت المحاولات، ويأسْتُ وبات الموت حلماً جميلاً
يريحني من العذاب والألم ، ما عدتُ أشعرُ بجسدي
وكأنه قد شلَّ إلا من الألم ، وحين خارت القوى
وبدأتُ أشعرُ أن الحلم قريب سمعت صوت أقفالٍ
تُفتح وأقدامٍ تقترب وإذ بأحدهم يضربني بعصا ليرى
إن كنت حية أم ميتة فحين تحركتُ من ضربته وإذ

بالسلاسل تتحرك وأهوي من أعلى وأرتطم بالأرض
بقوة فتتلقاني الأرض من جديد لكن فوقها وليس
تحتها، أطلق الآهات والدمعُ قد جفّ ، رفع الكيس
عن وجهي فأخذت أشهق أطلب الهواء وعياني لا
أستطيع فتحهما من الضوء والضرب والسحق الذي
تلقاهُ وجهي بأقدامه ، والصمتُ في المكان وكأنّ لا
أحدًا غيري هنا ، وبدأتُ أفتحُ عياني قليلاً قليلاً
ومن وراء الغشاوة التي على عياني رأيت المحقق
الذي حقق معي في أول يوم لي في المعتقل واقفاً
يُنظر فجلس متكئاً على ركبته وابتسامَةً تملأُ وجهه
وقال لي :تركتك أياما لتفكري وتتخذي قرارك بهدوء
فماذا قررت؟

الظماً زرع الأشواك في حلقي الأحرف تحاول
الخروج فلا تجد مخرجا، التعب والألم في جسدي

كله والجوع والعطش والدنيا كلها كأنها انقلبت فوقي
لا أستطيع منها خلاصاً ما عدت أحتمل الألم
فأجبتة همسا: أنا لا أعرف أحدا من المقاومة.
فردّ قائلاً: لقد ظننت أن الأيام الأربع الماضية كافية
لاتخاذك قراراً صائباً أم تحتاجين أياماً أخرى للتفكير
لكن ليكن في علمك كلما طالّت المدة كلما كانت
أشد وأصعب مما مضى.

بدأت صورته تظلم أمامي شيئاً فشيئاً وأنا أردد لا
أعرف شيئاً ثم غبت عن المكان.
فتحت عيناى وأفقتُ من جديد على ألمي فيداى
اللتان كانتا معلقتان في السقف يومان كما زعم
وأظنها أكثر من ذلك مقيدتان خلف ظهري..
يا إلهي أسألك الصبر والثبات ، ألم لا يطيقه بشر،
ما أملك إلا دمعي ونحيبي ودعائي يا رب رحمتك

فإني ضعيفة لا أقوى على هذا فأعني .

فليجري الدمع والدم مني وليشق النحيب المكان ،
وليبغ الألم الفضاء، وليأخذوا جسدي مني قطعة
تلو قطعة ، وليضيقوا عليّ المكان ، وليغلقوا
الأبواب ، وليحكموا الأقفال ، وليصدروا الأحكام ،
وليطأوا وجهي بالأقدام ، وليوثقوا جسدي بالسلاسل
الغلاظ لن أخون ولن أخون ديني ونفسي وأهلي
وأرضي ولن أنسى قول ربي (يا أيها الذين ءامنوا لا
تخونوا الله والرسول وتخونوا أمانتكم وأنتم تعلمون)
وسأقول كما قال عثمان رضي الله عنه سأصبر إن
شاء الله ، سأصبر حتى ألقى ربي .
بقيت أتوسد الأرض و أدرف الدمع بقلب كسير ،
تأنّ الأرض من تحتي من هول ما يجري لي باتت

الأرض خَلَى الحاني عليّ فلا قريب ولا صديق رفيق
إلا دموعاً على خدي وقلباً أعتصب من صدري
وأرضاً أتوسدها بجسدي...

وإذا بصوتٍ يناديني نور كوني قوية بإيمانك إنها
روحي ونفسي التي بين جنبيّ القريبة إليّ في
وحدتي تناديني ، إنه يفعل ما يفعل لتعذيبي فقط
لأن من يدخل هذا المعتقل لا أمل له في الخروج إلا
ميتاً.

وبعد مدة اجهل طولها فالوقت هنا طويل أعادوني
إلى الزنزانة .

دخلت فوجدت إيمان مطرقة رأسها والدمع في
عينها ومكان هدى حيث كانت ترقد خاوياً من
جسدها

وانتقلت الروح من ألم إلى ألم..... وتاهت في
دروب الحزن ، وعاشت بعالم ساعة الزمن فيه
تجري بالأحزان مسرعة قوية كالأمواج الهائجة،
تكسر الأشعة وتقلب القوارب وتقذف بالبشر في
أمواج عاتية لمصير لا يعرف سوى الموت.. لكنه
الموت الأبيض الذي يضلله النور من كل اتجاه
ويلف جوانبه حتى يغدو كالبدر في السماء مضيئاً
يتلألأ إنها الشهادة ..

قالت إيمان: نور الكلمات تسكن في صدري كلمات
مفارق مودع لا يرى في هذه الدنيا إلا لحظات
قصيرة تنقضي بين لحظة وأخرى مخلفة وراءها
أسىً يمتد أثره إلى أقاصي الروح..
وفي ظل حزنٍ جامح وتحت واقع الألم المكبوت

نبكي بصمت الحائر التائه.. وإحساسنا يضيع تحت
وطأة الوحدة..

ويتشج ليلنا بالسواد وما الليل ليلاً أسود إنما الروح
روح مفارق ليلها ونهارها سواء...

وحيدون ... متألّمون ... مشاعر تضيع بين بني
البشر كأنها لا مشاعر.. لا.. الإحساس ينتبه لها
ولا العين تلتقيها ولا الروح تحسها

وبين أحجار الحياة القاسية التي نزرح تحت وطأتها
نبحث عن منفذ للخروج فنعيش كمن لا قلب
له إلا أنين القلب ... يأنُّ ليلَ نهار ...

بعد أن تتشج الروح بالسواد والقلب يمتلئ أنيناً ..
وننظرُ بنظرةِ المفارق المودع حين يكتسي الليل ليلاً
قاتماً، لا يبقى إلا أن نرفع الأيدي نبتهل إلى
الرحمن بأنفسنا القتيلة.. ما نبغي في هذه الأرض

سوى رضىً يوصلنا إلى السماء.. سوى رضىً
يوصلنا إلى من في السماء جلّ جلاله..
لمست هذه الكلمات جراحی التي تأنّ..
كلمات تمسح الجراح وتعين على العذاب وتبعث
القوة في النفس وترسل في الروح إيماناً يصل إلى
السماء..

الفصل السابع

وكانه بعث النور في الزنزانة المظلمة وكأنه بعث
فيها الحياة بعد الموت والنصر بعد الهزيمة والقوة
بعد الضعف... وكانّ هذه الكلمات أماتت في
نفسي الضعف وقتلت في هذه الزنزانة الخوف
ودفنت فيها الإستسلام ...
كلمات رمتني على شاطئ الذكرى .. هناك عند
يوسف ، مازلت أتذكر كلماته يوم خارت القوى
وشعرت النفس بالهوان ..
فقلت لإيمان : أتذكر كلمات يوسف يوم رأيته آخر
مرة في السجن وكنت أقول له إن إحساساً في
داخلي ينبئني أنني أراك لآخر مرة ..

لا أدري كيف تكون الحياة من بعدك ؟ كيف يكون
النضال في داخلي لو صار الإحساس حقيقة ؟
فقال لي : لا تدعي إحساس الهوان يبلغ في نفسك
مبلغه .. لا تتركي العدو يغزو قلبك ويضعف إيمانك
مهما ساءت الأمور وتذكري دائماً أن بعد العسر
يسرا ... وبعد الظلمة نورا ... وبعد القمر شمساً ..
وضياء النصر والعهدة بات قريباً .. ولا تدعي للعدو
طريقاً يغلبك فيه ويكسر ذاتك .. كوني كالجبل لا
تهزه الريح .. شموخٌ ... وصمودٌ ... وعهدةٌ ... وقوةٌ ...
حتى تبلغين النصر ولن يكون للذر يوماً ضرراً
على الجبل ...

كلمات أحييت الماضي البعيد في داخلي وأشعلت في
قلبي النضال وقتلت الانهزام ...
فقال لي : من هو يوسف ؟

قلت : إنه زوجي .

تغير وجه نور وازداد حزنا يوم تذكرت يوسف
وغابت الزنزانة في الصمت المظلم القاتل بين
الذكريات التي باتت بعيدة عن الدنيا وعن الناس..
وما زالت الذكرى تأخذني إليه يوم زرته في المعتقل
لآخر مرة .. تلك المرة التي لم يكن بعدها ضياء ولا
نور.. يوم أن نقلوه إلى هذا المعتقل معتقل الموت
كما يسمونه ..لا نستطيع الوصول إليه ولا زيارته
ولا حتى معرفة إن كان من أهل هذا الوجود أم أن
شمسه قد غابت عن الوجود ..
فسألت : إيمان ألم تسمعي عنه شيئا ، ألا تصلكم
أخبار المعتقل في الطرف الآخر ، من استشهاد
ومن أصيب منهم .

فأجابت : بلى نعرف أخبار بعضنا ومن استشهاد منا

ونكتبه أحياناً على أوراق نتبادلها من خلف الجدران
خفية من وراء الجنود متى ما كانت الأوضاع
مناسبة وهناك طرقاً أخرى نتواصل فيها مع بعضنا
البعض في معتقل الموت هذا ، لكن أخبريني باسمه
كاملاً وسأقصي عن الأمر ، فأخذت نور تحدثها
متى انقطعت عنهم رسائله وأخباره ، ثم أخذت نور
تفكر أحيي هو أم ميت ..؟

قالوا وما أكثر ما قالوا أبحثُ عنك في الوجود ولكني
أبحثُ عنك في حنايا الروح ..
أتمنى أن أعطر أوراقى بأناملك حين تمسكها
وتقرأها وتضمها بروحك ... ولكن أين أنت ...
لما تغيب ..!.... وتظهر في الليل مع لمعة النجوم
تضئ من بعيد ... لِمَا لا تجعلني أضيع بين

أنفاسك المتدحرجة بروحك لِمَا لا تضمّني هناك
!...!... لِمَا تترك البعيد دائماً يضمنا !...!
أضيع في الليل ... أضيع مع النجوم أضيع
مع السكون ... أضيع مع الذكريات ... وهل
للذكريات مكان تبتعد ولطالما ابتعدت ...
تغيب .. تعشق الغياب ... وتظهر بعيداً متوارياً بين
خيوط الليل المنسوجة

بينما تتوارى أبحثُ عنك ... وبينما تغيب أشتاق
إليك .. وكأنك تجافيني لتتخفى فأشعر وكأنك تطلُّ
عليّ من بعيد ... من بعيد تعشق أن تراني ... من
بعيد تضمّني بعينيك من بعيد تعشق أن تراني
في اشتياق للحبيب المتواري ... غريب حتى في
عشقك إنك غريب ... لم تعد تقوى أن تعيش من
دون غربة حتى في عينيّ

تلومني .. تعاتبني .. تغضب مني .. وأخرى
تخاصمني لأنني أطيل الغياب ولا أزور ولا أرى
الحبيب وتساألني أيّ حبيبان عشقا بعضهما حتى
تبادلا الأرواح فسكنت روحك في داخلي وطارت
روحي إليك لتسكنَ في دفاء قلبك الحاني وبعد هذا
تحرمني النظر إلى وجهك ... إلى عينيك لأبهر
فيهما كما أريد وأصل إلى قلبك حيث سكنت روحي
....

لا تلمني وأنا لستُ إلا طيراً في قفص طيرٌ
حزين فقدَ أهازيج الحزن التي ينشدها ... قيدوني
بالأغلال ومن حولي القضبان ليغذبوني ... فكيف
أطيرُ إليك وقد قيدت بهذا القفص وروحي ما عادت
ملكي لتلحق إليك فتعيش مع خيالك واقعاً غداً جنة
داخل هذا القفص ... وتساألني لما لا أزور وما

تريدُ مني بعد أن تُلمتَ روحي وكُسِرَ قلبي وجُرحتَ
أحاسيسي ، بعد أن حُرمتُ من أعيش على عرش
ملكي .. ذاتي وقلبي ... وحرיתי ... تسألني لِمَا
أبكي ولِمَا لا أبكي ما دامت دموعي ملكي أطلقها
كيف أشاء ...

أنا طيرٌ جريحٌ كسيرٌ ، سجينٌ بقضبان من بشر
وحديد وأغلال ... فليت روحي تطير إليك تحلق في
سمائك ترفرف على قلبك .. تنتقي أجمل أحاسيسك
تشمها كنسيم الليل وتأتيني تدفئ قلبي من وجَل
القيد

خرجت نور للحظات من عالمها لتسأل إيمان عن
هدى : أتعرفين شيئاً عن هدى منذ متى وهي في
المعتقل ؟

لا أعرف عنها شيئاً لقد جئت هنا وهي أقرب إلى
الموت منها إلى الحياة سوى أنّ لديها طفلاً صغيراً
عمره خمس سنوات أوصتني إن خرجت يوماً من
هنا أن أذهب لأراه وأبلغه وصيتها لا تنسى بني
أمك الأسيرة وأخواتها وإخوانها في الأسر وعش
مناضلاً ومت مناضلاً أو منتصراً .

الفصل الثامن

وعمّ الصمت وطغى على المكان وكان هو الكلام
والجواب المنتظر، ومضى الوقت يجرّ دقائقه مفكراً
معي أتراه قد علم أنني في المعتقل أم هو لا يدري ؟
أهو حيٌّ أم ميت وما يفعل إن علم أنني هنا ؟
وإن كان حياً لن أجعلهم يعلموه عن أمري إلا إن
خرج الأمر من أيدينا وتدخل فيه الأوغاد .

ما إن غابت الشمس حتى بدأنا نسمع تلك الخطوات
الرتيبة التي تنبأ بما وراءها وفتح الباب وأخذ كلاً
منا إلى غرفٍ مجهولة قد لا يطول التساؤل إلا
وترى الجواب بعينيك .

إنه المحقق يسألني من جديد: أعطيتك فرصة
طويلة للتفكير قبل إصدار الحكم فما هو قرارك ؟
فقلت : نسيت أن تذكر أنك ساعدتني أيضا على
التفكير بطريقتك الخاصة .

فقال : إذاً لابد أنك اتخذت قرارك فما هو ؟
فقلت : لا أعرف شيئاً عن المنظمة .
فاحمر وجهه غضباً وقال : إن لم تتعاوني لن يكون
هناك أملٌ في الخروج من هنا وسيكون مصيرك
مثل هدى والكثير قادم عما قريب وما رأيته من قبل
لن يكون إلا نقطة في بحر الألم القادم .
فقلت : إنه ليس تعاون الذي تتحدث عنه إنه
خيانة.

فقال : سمها كما شئت خيانة أو مصيرك المنتظر
أو حياتك أو نجاتك من الموت أو ما تشائين من

المسميات فهي لا تساوي عندي شيئاً .
فقلت : بالتأكيد هي لا تساوي عندك شيئاً لأنك
تساومني لتحصل على ما تريد بأي صورة أو
طريقة، المهم أن تصل إلى غايتك التي تنشده ،
لكني لن أكون خائنة .
فقال : لن تخونني حتى الموت .
فقلت : كلمة لا لن تغير من واقعي شيئاً ولن
تضيف إلى حقارتك شيئاً ، حتى لو زهقت أنفاسي
نفساً وراء نفس .
فقال : إذا سترين ثمرة الأمانة والوفاء ، أتظنين
أني أصدق كذبك أنك لا تعرفين شيئاً .

واقتربت من مصيري المجهول بهدوء القوي لا
استسلاماً ولا ضعفاً ، أشعر بخطواته تدوس على

قلبي وتقطع مني أنفاسي والدمع حائرٌ في عيني ..
يا ليت في الفؤاد مكاناً ليحمل ما في صدري الآن
.. يا ليت الدنيا تتحدث لأحدثها عن ألمٍ يضرب
صدري بقوة .. يا ليت الهوان يرفع عنّا .. يا ليت
لنا عزّاً نحيا به .. لا أن نكون أشباه موتى ..
من هنا من هذه السجون ومن الأرض التي تسيل
دماءً يخرج من يقاوم حتى الموت حتى النصر

مزق الروح التي تلبس جسدي تمزيقاً والكلمات
الصامتة بلغت وخبأت وحملت كل الصور وفضحت
كل الأحاسيس التي لو وضعت أستار الدنيا بأسرها
ما سترت ما وراءها ولا أخفت .. وستبقى طعنة
العفة وكسر الروح وتدنيس الجسد يحمل كل
معاني الهوان والذلّ في هذا الكون الذي لن يحمله

و يعلم به أحداً إلا نفسي... وكفى ... وكفى وصفاً
وكفى كلماتاً .. وكفى ذلاً..
ولن يصرخ الصوت مسمعاً أحداً وكفى بالصمت
سكناً وملاذاً وستراً نتواري وراءه حتى يأتي يوماً
يُطعن فيه الباغي ويمزق تمزيقاً أو يكون الموت
سكني أخيراً ...

أنَّ القلب أنينهُ وبكى ، وما بكاءه كما تبكي الروح
فهي تأنُّ وتموتُ وتكسرُ ، وكسرُها كهشم العظام،
كيف لا ، وكسرُها كسرُ عفة .. وشرف ..
أشعرُ بنفسِي كمن رُمي في مكانٍ سحيق...
بعيد...ظلمتهُ تلبس ظلمة .. لا نورٌ فيها ولا أنوار
.. ولا بشر ..ولا فعلُ أظهار .. تدنيس وظلم وسرقة
.. سرقوا الأرواح من الأجساد .. سرقوا الشرف من

العفاف .. سرقوا البسمة من الأطفال .. سرقوا
الأبناء من الآباء والأمهات ... رموني في ظلمة
مالها قرار ومالها من نهاية فهي تعيش في النفوس
طويلاً... فيها..بُعِيَّ عليّ....فيها .. غرقت في
دمي ويا ليت كل الدماء دماء ...

أعادني إلى الزنزانة رمانى على الأرض ومضى فهذا
شأنهم دائماً يفعل الجرم ويمضي تاركاً وراءه جرائمه
وكانها ليست على يديه .. بقيت على الأرض
أمسح دموعي بتراب الأرض ثم رفعت رأسي ويدي
إلى السماء يا رب عُلِّقت الدنيا أبوابها وكذلك
البشر ..

وأظلمت الدنيا أكثر من ليلها المتشح بالسواد ولم
يبقى إلا بابٌ في وسط السماء من نور .. وصوت

نحيبي يشجّ صمت الليل المظلم ويشقّ طريقه إلى
نورك حيث بابك يا رحمن السماوات والأرض بعد أن
انكسرت النفوس وضاعت الدروب وتاهت العقول يا
رب يا رحمن يا رحيم فرجك ورحمتك ...
وبينما أناجي ربي فُتِحَ الباب وألقى إيماناً أرضاً،
ولاذ الجميع بالصمت وقد بدا على كلِّ منا العذاب
والألم ... فما عاد للكلمات موضعاً ... ولا مكاناً
بيننا ... وانتهى بقية ليلٍ باقٍ كما انتهى الكلام ..
وبقينا كأوراق الشجر حين يتساقط في مهب الريح
وكالمد حين يعلو ليغطي الصخور معبراً عن غضبه
الجامح .. وكما تعصف الرياح مدمرة كل ما
أمامها وهي تجوب شوارع المدينة معبرةً عن
غضبها هي الأخرى ...

نبحثُ عن المعاني في داخلنا ونتساءل لما
الصمت ؟ !

لما السكون في قمة لحظتنا الإنسانية ؟ !
لَمْ لا نثور ونجوب شوارع المدينة ونعصف وندمر
؟ ! لَمْ لا نعبّر ونصرخ بما نشعر ؟ !

وبينما نحن في خضم المشاعر حيث تتجادبنا
وتتلاطم بنا بين شفافية المشاعر وسكونها ، بين
لحظات نعاني فيها من ألم جامح ينقلنا إلى لحظةٍ
يتوقف فيها الكون بنا .. كما يتوقف إحساسنا
بالأشياء لحظة سكون المشاعر ، لحظة استعدادها
للانفجار .. للانفجار الذي يبدد كل ما أمامه من
دون أن يترك لنا فرصة للهروب ، إنما فقط أرض
المواجهة ولا أدري لما نخافها ونحن لا نملك ما
نحتمي به من حنين الماضي وجراح السنين شيئاً

...

وما زلنا نفتقد جرأة تنقلنا من واقع أن الأحلام تظل
أحلاما وكلمات نسطرها ومشاعر تفقد صراحتها
بأقلامنا وبين أوراقنا .. حينها نحتاج إلى من يداوي
جراحنا وينقذنا من الوقوع بين أمواج الطبيعة التي
ليست سوى مشاعرنا الهاربة، ونحتمي بين ذراعين
تضمننا عن الآلام.. لكنه بعيد .. وأين هو لا ندري ؟
فكيف بمواجهة الفرد أن تكون نصرا وليس فردا
حرا إنما مقيدا بشتى أنواع القيود ..
فيا ليت بحري وأمواجي تصل إلى خارج هذه
القضبان

نمشي بالطريق لا نلوي على شئ .. أي الطرق
نسلك لا ندري .. نشتاق لأغلى الناس لأحباب
القلوب نحلم أن نأوي إليهم ويبقى الحلم حلما لكنه

مفزعا من خوفنا عليهم من ألم الفراق ..
.. لابد أنهم يتعذبون أشد العذاب فلحظات الغياب
موجعة لكنهم يعيشون في نبضاتنا ..

الفصل التاسع

تحت جناح الظلام تسطر دموعها حروف حكايتها
على الوسادة التي ما عاد فيها مكانا لتحمل قصة
جديدة ومع ذلك تمسح أحرفي لتسطر دموعا جديدة
لكنها ليست بغريبة .. وحيدة لكنها ليست ببعيدة ..
قريبة فهي تعيش في صدري .. ويمضي العمر ..
وتمر السنين حتى امتلأت الوسادة فما عاد فيها
مكانا لتمسح وتسطر وإنما باتت الأحرف والكلمات
تسيل مع الدموع وكأنها السيل من الوسادة إلى
الأرض لتبتلع أحزاني وتحفظ حكاياتي ومرّت الأيام
فكانت الأرض تأنّ من تحت وسادتي فأين أذهب ..
فأين .. ومن يسمعي ..

حتى الآذان الصامتة ما عادت تستطيع أن تحمل
هموما كالجبال فكأن قطرات الدمع تدك الأرض ..
وتقول لي كفى ما عدت أطيق ولا أحتمل المزيد وأنا
التي ظننتها رفيق الدرب .. حامل الهموم صديقاً
حاضراً قريباً مني لا يبتعد ولا يغيب

دع الهموم التي في صدري تخرج فإن حملها ثقيل
ومالها من دواء ... إلى أين يأخذني الطريق ...
إلى من تتجه بي السبل ... كيف بغربتي .. كيف
بوحشتي ... كيف بسجني .. كيف بدمعي الذي
يسيل .. ودمي الذي يقطر مني صامتاً ...
إلى أين إلا إليك ... ربي .. إلى من إلا لكفك ؟

وفي الظلام تعيش نور بنور الأمل الذي يسكن
داخلها ثابتا كالجبال لا تهزه الرياح وهي لا تعلم ما
ينتظرها في الغد .

وتمر الدقائق والساعات وهي غافلة عما يجري
خارج هذه القضبان وما يدور في شوارع مدينتها
وأشرقت شمس النهار وما علمت أنه سيندثر
وتنتهي ظلّمته بظلمة أخرى لانهاية لها ...
منذ اقتيادها لغرفة التحقيق وحين دخلت نور بدا
لها المحقق سعيداً وهو جالساً على كرسيه وبيده
ظرفاً مغلقاً وباقترابي إلى الطاولة أخذ يلوح لي
بالظرف وهو يقول عندي هدية ثمينة أسعدتني جداً
أتودين أن تريها ؟
فقلت : ما يسعدك بالتأكيد أنه سيحزنني .

ثم قالت في نفسها الضيق الذي تملكني بالأمس
والدموع التي أطلقتها عيناى سأعرف سببها الآن .
فأخرج ما في الظرف وإذا فيها صوراً يعرضها
أمامى على الطاولة وأول ما شدنى إليها أنها صور
للحي الذي اسكن فيه،أخذ يسطرها بهدوء قاتل
صورة تلو صورة وإذا بالمنازل مهدمة والآليات
تهدمها وأطبق شئ ثقيل على صدري ثم أمسك
بآخر صورة وقال أما هذه هي الهدية الثمينة
ووضعها أمامى وإذا ب.....

صوت من البعيد يناديني نور ..نور... استيقظي
وقطرات من الماء تنضح على وجهي وأجفاني ثقيلة
لا أستطيع فتحها وبعد جهد فتحتها وإيمان ترش
الماء على وجهي .. نور مالذي أصابك ؟
جاءوا بك يجرونك وأنت مغمى عليك فماذا جرى ؟

فلم أعرف بماذا أجيب فقط دموع تسيل على خدي
..ثم استويت جالسة وقلت لقد اجتاحوا حينا وهدموا
المنازل بالآليات، قصفوا منزلي بالطائرات ودمروا
المنزل .. قتلوا أمي وأبي قتلوهما .

فقلت : وما أدراك أن ما قالوه صحيحا إنهم
يتلاعبون بأعصابك ليصلوا لما يريدون .
فصرخت : لا إنهم لا يتلاعبون لقد صور جريمته
البشعة وأتاني بالصور وهو يقول لقد جنتك بهدية
لقد قتلوهما ...

فقلت : نور لا تيأسي قد ينجون فكم من قصف
وتجريف للمنازل استطعنا أن نخرج من تحته أحياء
وكل إنسان لن يموت إلا بأجله وهم ما هم إلا
أسباب وإن ماتوا فهم شهداء عند ربهم ووجودك
هنا ليس سبباً فهم لا يحتاجون إلى ذريعة ليفعلوا

جريرمتهم فهم يفعلونها دائما من دون أسباب وقد
تكونين بينهم ومعهم ويفعلون جريرمتهم هذه فنحن
اعتدنا أن نصحو وننام على جرائمهم لا تجزعي
فالنصر بات قريبا .

يا رب ما بقي إلا بابك .. باب لا يغلق .. وسمع
عني لا ينقطع .. وبصر علي لا يغيب .. ورحمة
هي بالرحمات كلها هي الحنان والسكينة التي تدخل
إلى قلبي تطرق أبوابه برقة ...

بابك يا واسع الرحمة يا مؤنس كل وحيد ويا
صاحب كل غريب ويا مؤنس كل فريد ويا ملجأ كل
خائف ويا كاشف كل كربة أسألك يا رحمن أن
ترحمني وترحم ضعفي وعجزي وغربتي وهواني على

الناس ، بابك الذي نلج إليه في كل لحظة ونبقى
فيه ما شئنا البقاء ونخرج متى طابت النفوس
ومسحت الجراح ..

وتغشانا رحمتك فنعود وكأن الأرواح قد عادت إلى
الأجساد والقلوب عادت لتنبض من جديد ..
فسبحانك يا من بعنا أنفسنا إليك .. أشهدك وأشهد
خلائقك أجمعين أني أحبك يا ذا الجلال والإكرام
وأحب لقاءك وسأصبر حتى ألقاك حتى ولو دفنت
تحت أرضي هذه وفي زنزانتني هذه .. فثبنتي يا ربي

...

وأغمضت عينيها وهي تشعر أن روحها قد ماتت
والأنين قد أخذ مكان أنفاسها والقلب بات مريضا
متوجعا يصارع الموت ولا دواء للموت إلا الحياة
فأين هي الحياة

ما تكتب السطور عنكما فتلك المشاعر لا تدونها
الأوراق .. هل سأفتقدكما في كل لحظة .. أتذكر
لقاءنا أم أعيب في كلامنا .. في موافقنا .. أقف
عندها وأعيش معها لحظة اشتياق أم هي حزن أم
تراه غضب جامح يود أن يهز ويكسر الجدران
ويقتل الجبان ..

تبحث الكلمات في داخلي عن معنى تعبر عنه
تصف به حالي أقول أنني أشعر بأشد وأقوى ألم في
هذا الكون أم هو أشد ألم شعرت به في حياتي أم
أنني لا أشعر بالألم من شدة الألم .. كلما مرّ بنا ألما
قلنا هو الأشدّ ألما .

لم أضلّ طريقي وإنما ظللت في طريق الجرح دهرًا
طويلاً وأمدًا بعيداً .. حتى ضاع مني قلبي بين
دماءٍ لا ينضب نزفها وجراحٍ لا تبرا.. فكيف لا أضل
ولا أضيع وما عاد هناك حديث قمر ولا نسيمات ليل
تتطاير فرحاً إنما وردّ يبكي وهواء ليل ثقيل من
أنينه ونهار مظلم غابت شمسهُ ..

لن أقول ما عاد لي قلب يبكي إنما قلبي يأنُّ من
جراحه ويبكي حزناً من شدة آلامه وما بقي إلا أملاً
تسرب إليه الحزن وذكريات ليست ببعيدة دبَّ عليها
ظلال أسود من الليل الحزين ومشاعر غرقى
بالجراح تتنفس الدواء تبحث عن الذكرى ليكون
لقاء الحبيب يمسح الجرح الكسير ويرسم طريقاً
أضل فيه دهرًا طويلاً وأمدًا بعيداً حيث لا نرف ولا
جرح ولا أنين ولا ذكرى الليل الحزين .

الفصل العاشر

وبات الليل الطويل ليل الخطى الرتيبة التي تمشي
في الدهاليز لتنبأ ما ورائها من صرخات وصيحات
مكتومة من العذاب الأليم وانتهاكات الأجساد
والأرواح، والباغي يفعل كل شئ فلا شرف ولا دين
ولا خلق يمنعه فما يجرى من منعدم الأخلاق
والشعور والإنسانية التي تجرد منها ليكون بهيمياً
محضاً ، الصرخاتُ عندهُ أحياناً والدماغُ عندهُ إنجازاً
والتعدي خلقه الرفيع وغايته الأسمى التي تظهر
منه ما خفي مما يريد والدموع نصره المنشود الذي
ينم عن مرضه البهيمي الذي يتبرأ ويأنف أن يكون
منه الحيوان والقتل النصر الحقيقي له
والعالم في صمت الغريق الذي لا يجد الهواء

لأنفاسه فكيف بالغريق الأسير أن يلقي له بالاً ...
صرخات أفرغت الزمان ولكن بني البشر في سبات
عميق لم يفيقوا منه تحت ظل المعاهدات
والمؤتمرات وكذبة السلام الذي لم يرى منها العالم
شيئاً والنوايا الحسنة التي يدعون وما هي إلا نوايا
سيئة يظهرون ، فلما سجونهم ملأى تفيض
بالبشر وتزداد ولا تنقص ، وتكثر فضائرها في كل
حين ، وأيُّ سلام هذا الذي عنه يتحدثون ونحن في
قتلٍ وتشريدٍ وهدمٍ وأسرٍ وانتهاكٍ في كل يوم وعن
أي إرهاب يتحدثون وحقارةٍ دنينةٍ يمارسونها وعنها
يتجاهلون ولنقول إن كنا إرهابيين كما تزعمون
فأنتم إرهابيون لا إنسانيون .

الكلمات مهما بلغ تعبيرها وحسنت صياغتها لن
تبلغ لحظة من لحظات الألم الذي نكابد ولن تعرف
أن تسطر لحظة انتهاك إنسانيتك حين تشعر أنك
ممتهن من أحقر الناس وأن وجودك كأنه لا وجود
في هذا العالم وكأنك لا موجود ليلتفت إليك أحد
وكان قضيتك أهون القضايا وهي آخرها دائما ،
فذبح الخراف في العيد وحشية وانتهاكاتهم حقوق
دولية وقتلنا إرهاب عالمي ترصد له الملايين ،
وانتهاكاتهم الإرهابية قوانين حرب عالمية ، مالي
ولهم إن صمتوا فصمتهم مكر وخديعة وإن تكلموا لا
إنسانية منطلقة لكني أتساءل عن أمتي الغائبة
النائمة كما تنام العروس في خدرها أين أنتِ مما
أصابني ؟ أين أنت مما جرى لنا ؟

يا أمّتي إن كنت تظنين أننا أفراداً يسهل التغافل
والتخلي عنا فإننا أمة ولسنا أفراداً ننادي ...
وإن كنا وحدنا فإننا أمة بقوتنا وصبرنا رغم أنف
الباغي ، إنا أمة طال صبرها وهي تردد إما النصر
أو الشهادة أمة صرخاتها تشق آفاق السماء عزاً
مهما امتهنت على يد الباغي أمة موتها شرفاً
وألماً فخراً ولكن يبقى ذل العدو كسراً لا تداويه
الأدوية ولا يطببه الأطباء لكنه ينشئ جيلاً يصنع
المجد من ورائنا ويأخذ بدمائنا ويعيد عزتنا ...

أشرفت الشمس من بعيد ولمعت السماء بزرققتها
وطارت الطيور بحرية محلقة إلى البعيد ونور
تفترش الأرض وتضم أحزانها في جسد آهاته وأتينه
بلغ المدى ..

وحالها يحكي عن نفسه معبراً .. أشلاء متفرقة
تجتمع لتعيد نبضاً يأنُّ على حاله من ظلم وجورٍ
أصابه وإلى من أشكو ألمي لأمةٍ نامت عني أم
لمجرم همه أن يكون هذا هو حالي ..
إنما شكواي إلى رب لا يغيب ويسمع أنين الشاكين
إليه وآهات المظلومين ومناجاة المقهورين والزمان
لن يطول بنا وبهم كثيراً إلا وينتهي ، ولكل يومٍ وإن
طال من آخر ولكل قصةٍ نهاية..

تفجر إحساسٌ داخلي منذ أن أشرقت خيوط الشمس
الرفيعة التي لا تكاد تضىء في زيزانتي ومرت
الساعات يومها ثقيلة وكأنها من حديد تزن أطنانا
يحملها جسمي الهزيل وملاً قلبي الخوف العظيم
وخشيتُ مما ينتظرني ومما أسمع بين جوانب هذه
الجدران .. وكلما ازداد تعذبي شدة وألما مع الأيام
ازداد جسمي نحولاً حتى غدا عظماً يكسوه لحمًا
رقيقاً كخرقة يبين ما تحتها وهو حال الجميع هنا ..
وكل العذاب يهون ولا تأتي لحظة سرداب الموت
... وما سرداب الموت إلا زلزلة مظلمة كغيرها من
الزلازلات لكنها سميت بذلك لأن فيها يؤخذ ما هو
غال وثمين .. فيها تسيل دماء ليست بالدماء
وتنزل دموع ليست كالدموع .. آهاتها لو وزنت
بميزان لما وجد ثقلٌ يزنها ..

صرخاتها تتصدع لها السماء والأرض .. عذابها لا
ينسى .. وجرمها لا يعترف .. فهذا الألم الذي لا
يزول ما كانت الروح بالجسد .. والثأر لها سيكون
ولو بعد سنين .. فهم يسمونه بسرداب الموت
سخرية بنا لأننا نذوق الموت فيه .. فكنتُ أحدث
نفسى ماذا لو أخذتُ اليوم مرة أخرى إلى سرداب
الموت، ماذا أفعل كيف أتصبر ؟ ...
فملكنتي الحيرة ولم أجد جواباً إلا أن أتمنى الموت
حقيقة فهو أكثر رحمة مما سيكون هناك .. وممرت
الساعات تلو الساعات والباب مغلق وأكثر ما أخافه
طققة المفاتيح والسير في الدهاليز والمرور
بالزنزانات إلى أيها يأخذوني ... وبين الأفكار
وظلمة الجدران وضيق المكان ... سمعت صوت
المفتاح ورأيت الباب يفتح وقلبي يهوي إلى وادٍ

سحيق وجرتي وقلبي يقول لي أنه يسوقني إلى
طريق الموت وشعرت أنني سأصرع حين أنزلوني
وقلت في نفسي يا ليتني أصرع قبل هذا (يا ليتني
متُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً) وبينما هو يجرتي
تذكرت قول الله تعالى (وسيق الذين كفروا ربهم
إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال
لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات
ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن
حقت كلمة العذاب على الكافرين ، قيل ادخلوا أبواب
جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) ...
وفتح باب الموت آهات ودمعات تكفي لتحكي
كل ما كان فالكلمات تعجز عن التعبير .. لحظة أن
مزقتني كما يمزق أحدهم قطعة قماش إلى قصاصات
صغيرة .. لحظة أن اقترب قريباً يدنس الأطهار ..

لحظة أن شدّ وأخذ ما ليس لنجسٍ مثله .. لحظة
أن دنا كأنّ الشمس نزلت لتحرقتني .. وكأنّ ساعة
الموت صعقتني من هول ما أشعر وأرى فصرختُ
صرخةً أرتج لها المكان والظالم ماضٍ فيما يفعل
حتى وان اضطر أن يكتم الأفواه ..

بكت الأرض من تحتي وابتلت بدموعي، وصرختي
سمعها كل شيء إلا أهل الأرض إلا بني البشر قد
صموا آذانهم وغطوا أعينهم فما من سامع ولا رأي
... أنفاسي قد ضعفت وروحي تصارع في جسدي
وألماً يقطعُ نياط قلبي ودمعٌ حائرٌ في عيني وآهة
مكتومة في صدري كسيف يقطعني صعوداً ونزولاً..
وما أشد من هذا اليوم وهذا العذاب إلا أن يكون
هذا الطريق مسلكا كل يوم وإلى ذات الأرض وتحت

أنقاض الدموع وبين صدى الصرخات المتجدد من
أمس قريب وصرخة وصعقة موت تنازع فيها الروح
الجسد بأشد ما يكون لكنها ويا للأسف قلبي لا
تستطيع الفرار من جسدي

والألم يشق قلبي شقاً تذكرت ما نسيت حين أغلق
الباب من خوفاً (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى
الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال
لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين
وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض
نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين وترى
الملائكة حآفين من حول العرش يسبحون بحمد
ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب
العالمين)

الفصل الحادي عشر

مُرغٌ وجهي في التراب ... ومُرقتٌ مني الثياب
وانتَهكتٌ مني الحرمات ... وسُلِبتُ الحريات ...
وسقطت من البغاة كل الشعارات ...
خلت الأرض من كل قريب وحبيب وباتت الدنيا
وكأنها الآخرة فلا أحد يلتفت إلى أحد وكلّ يسعى
لنفسه وليبكي من يبكي ما همهم من بكاء الوحيد ؟
وليتألم من يتألم ما همهم ألمه ولن تجد آهاته
صدى في أسماعهم ... ولينفطر القلب حزنا لن
يجد نفسه إلا غريبا بين الناس ... خالٍ إلا من
نفسه ... أينما ألتفتُ لا أرى إلا نفسي من حولي
... وأتذكر كلمات بات جرحها وراء القضبان أكثر

إيلاماً وأشدّ عذاباً ... تلك الرسائل التي تحمل في
طياتها الشوق الملهب والموت المحرق ... كلمات
الحبيب ورسائله الأخيرة ...

إلى من لا يرى الحب مكاناً يأوي إليه إلا قلبها ولا
ملاذا يهرب إليه إلا حضنها ... إلى حبيبة لم يعرف
الحب معناه إلا حين رآها ماذا أكتب وأنا أشعر
أنها آخر الكلمات التي بيني وبينك ... لا أدري ماذا
أقول وأنا أشعر بالعمر بساعات قليلة وينجلي سكون
الليل بانبثاق فجر يصرح عن نهاية رحلتي في
الحياة من دون أن ترى عيني عينيك وأروي شوقي
وظمأي إليك ... حبيبتي سينجلي الليل ويطلع فجر
يصرح عما وراءه وما وراءه إلا ذكراك الذي لم
يفارق لحظاتي ... لا أدري لما شعوري بك يزداد

في كل لحظة وكل يوم حتى وإن غاب عني التفكير
ونسيت الدنيا من حولي لشدة الآمي التي أشعر
يصلني إحساسك وشوقك الذي يعبرُ عن ذاته ويأنّ
من لحظات الفراق الموجعة ويعيش بحلم وإحساس
بوجود الحبيب في مكان ما قريباً يعايشُ لحظات
حبه بأمل منشود ويرسل حبك لي حتى أكاد أغمض
عيني فأشعر به وأسمعه مع سكون الليل ... أعرف
معنى الحب وألمسه وأنا معك ...

أشعر بالعالم يتبدل في تلك اللحظة ... وكأنّ
الكون غير الكون واللحظة غير اللحظة .. أشعر
برقة همساتك كنسمة هواء تلامسني ... أراك رقيقة
كالوردة يداعبها الندى فينسب على أوراقها
الناعمة ... الأمس خذك بأصابعي فأرى أني الأمس
وردة فاح عطرها فغطى الكون حباً ورقةً ووفاءً

واباءً وقوة وإرادة أهذه صفاتك أم هي أنت وهي من
تتصف باسمك ...

فإليك أريد أن أطير وأكون طيراً يطير بجناحيه إلى
حيث تكونين ... أتذكر الهدف والغاية ... أتذكر
الحلم ... حلم العزة والمجد ... أتذكر الشهادة
وما أجمل ذكرها ... أتذكرين حين كنا نتمنى أن
ننالها سوياً فيكون طريقنا إلى الله سوياً إلى جنات
الفرديوس ... أتذكرك فيأخذني حنيني إليك لأكون
معك .. حلماً يبيت معي كل ليلة لا أدري أيطلع
عليه الصبح أم ينتهي ويغيب مع ليله الطويل

لو تعلم أنني اليوم بتُّ أعاني مما كنت تعاني
وينطلقُ الأسرُّ والاعتقالُ برحلة طويلة بين الموت
والفراق والشوق والعذاب والألم ...

حملت أسراراً كثيرة في قلبي لم أخبرها لأحد يوماً
وسأخذها معي في قلبي بعد أن يتوقف نبضه عن
الحياة لينتقل معي من مكاني فوق الأرض إلى
تحت الأرض ...

كنت أود أن أرسم طريقاً في حياتي أجمل مما أحيا
في هذه اللحظات وأودُّ أن أصنع مجداً يكون نجماً
يلمع في أفق السماء لكني لم أستطع إلا أن أدخل
هذه الدنيا بصمت وأخرج منها بصمت حزين ...
حملت الحلم في قلبي والأمل زرعه بعقلي لكن قد
سبقت اللحظة .. اللحظة .. فسبقت لحظة الغياب
الأبدي لحظة الحياة الأبدية وتركت الأرض من دون
أن أرسم أسمى على لوحة الحياة ...
انتقل في شريط الذكريات بدموع وألم وأنا أرى
النهاية بعيني فكيف أستطيع أن أعبر عن مشاعر

وإحساس قلب مفارق للأبد ..

كيف أصفه ؟

ما أذكر حبيبي من لحظاتك من سكناتك ، وأركنُ
إلى أي ذكرى وأعبّر عن أي إحساس ... ولحظة
الغياب بدأت تحجب عني الرؤية كالضباب لكنّ
قلبي مازال ينبض .. إني أراك .. نعم أنت أمامي
لكن دموعي تمنعني أن أراك بدأت تبتعد .. تغيب
لكنك في قلبي تنبض ولن تغيب حتى يغيب هذا
النبض ... أتسمع همسي مع نسيمات الليل كم
أحببتك يا أملي وحلمت ببيتنا الصغير الذي غاب
وزال قبل أن يبني .. بدأت الدموع تحجب عني
رؤية الكلمات ... أفكر ماذا بعد ماذا نسيت ... ما
الذي لم أكتب .. بوذي أن أكتب قلبي وأهديه إياك
مع هذه الأوراق بحبه وأسراره وكل ما فيه .. أبقيه

معك ...

أتمنى أن أراك لآخر مرة وآخر نبضة وآخر نظرة
تكون لك أنت ...

أشرفت الشمس من بعيد وازرقت السماء وطارت
الطيور بحرية محلقة إلى البعيد ونور مازالت
تفتersh الأرض وتضم أحزانها في جسد آهاته وأينهُ
بلغ المدى ..

اقتادوها إلى إحدى الغرف المظلمة نهارا والمعتمة
ليلاً لتلاقي مرارة العذاب وتذوق من كأس الذل
والهوان وتطأئ الرأس للعدو الباغي رغماً عنها
ما عاد هناك ما يهزها فليفعلوا ما يريدون فالروح
ملكٌ لبارئها وقد بعثها له فمتى أراد أن يستردها لن
يكون لهم في ذلك رأي ولا قول ولا مشورة ... طغى
الطغاة وتجبروا وانتهكوا وبغوا وهاجرت غيرة قومي

واندثرت إنسانية القلوب فيهم وعميت الأبصار منهم
وصمت الأسماع وضاعت صرخاتنا في صدى
الزمان وباتت الآهات التي تحملها القلوب والألم
الذي تحمله الأرواح والدموع التي أحرقت مآقينا أمراً
لا يعينهم ...

فيا إله الضعفاء ألوذ بك من بغي الظالمين وأطرق
أبوابك وقد وخلا بنا الزمان من ناصر ينصرنا ومعز
يعزنا ومالنا إلا الله جلّ جلاله رب الأسرى
المستضعفين في الأرض نلجأ إليك ربنا بفقرنا
وغناك عنا وبضعفنا وقوتك وبانكسارنا بين يديك يا
ملك الملوك أن تنصرنا بقوتك وتعزنا بعزك وتذلهم
بذلك الذي لا يرفعه عنهم أحداً سواك وأن تفك
أسرنا أو ترزقنا شهادة ترتضيها لنا ترفع بها عنا
هذا الذل وأن تثبتنا على الحق حتى نلقاتك .

الفصل الثاني عشر

قيدوني بالقيود وذهبوا .. قيدوا مني الأقدام ثم
علقوني وجعلوا رأسي يتدلى إلى الأرض....
ووضعوا أكياسهم السوداء برأسي لتظلم الدنيا أكثر
مما هي مظلمة وليمنعوا عني الهواء الذي أتنفس
ومن يعلم قد تنتهي أنفاسي فهذا ما يتمنون أن
أموت اختناقاً وأن يقتلوني بأيديهم فهذه غايتهم
وسعادتهم...

أشعر أن النهاية باتت قريبة فيا رب يا من بيده
الحول والقوة أسألك أن تثبتني ، يا ليت آخر ما
أموت عليه كلام الله .. الهواء ينقص والحرارة تزداد
ولا يوجد هناك متنفس ، يعذبوننا لنموت موتاً بطيئاً
أو نرجوهم ليخلصونا لكن والذي نفسي بيده لن

يكون لهم ذلك فإن الموت سيأخذني بهم أو من
دونهم ولن أسألهم ما يريدون وسأموت شامخة
بعزة المؤمن رغم قسوة هذا العذاب ، ما الذي
يصبرني إلا كتاب الله (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة
ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء
والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين ءامنوا
معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب)
الهواء ينقص لكنه سينقص على أي حال ولكني
وأنا أتلوا هذه الآية أجد الثبات فيها حتى الموت ،
الدقائق تمر كأنها ساعات والوقت من أطول ما
يكون ، ما عاد هناك هواء أتنفسه ، من أصعب ما
يكون أن يموت الإنسان اختناقاً والدم أشعر أنه كله
في رأسي أختنق فيلتصق الكيس في وجهي، أحاول
أن أبعده لأتنفس فأجد يدي مقيدة ، نعاني أمر

العذاب وأوجعه مالا يحتمله أحد دقائق وليس
ساعات أو أيام ، الأنفاس تضعف والصوت همساً
والنهاية تقترب ... دخل الباغي وسمعها تهمس
بالقرآن وهي ما عادت تستطيع أن تقرأ سوى ألا إن
نصر الله قريب فثار حقدَه وتفجر طغيانه ، وبدأ
يعذبها بأشد تعذيب ، سباً وشتماً وضرباً ثم لم يكفه
أن تقاسي هذا كله وهي تختنق وتشهق شهقاتها
الأخيرة في الحياة ، أن يتم تعذيبها بصعقات
بالكهرباء حتى صعقت صعقة لاح الموت فيها ،
ولكنها لم تمت وإنما فقدت وعيها واستفاقت بالماء
البارد يصبُّ عليها وهي تشهق تبحث عن الأنفاس
وعيناها لا تستطيع فتحهما من ضوء الشمس
الذي لم تره منذ أن دخلت المعتقل وكانت مقيدة
بالأغلال مربوطة إلى السياج أقدامها لا تكاد

تلامس الأرض والشمس تحرقها بحرارتها ..
لم تعد تعي ما الذي يجري لها تارة كان الموت
يلوح لها وظنت أنها النهاية وأخرى هي مقيدة إلى
السياج معلقة في الشمس لم تمت حتى هذه
اللحظة لتذوق من العذاب أصنافاً أخرى ذاقها من
قبلها الكثير من المعتقلين من الفتيات اللاتي معها
ومن الفتيان الذين هم في الطرف الآخر من
المعتقل، خارت منها القوى وضعف الجسد، الموت
قد لاح فيها ، فتذكرت الآية التي كانت تتلوها حين
دخل عليها الباغي فعادت تهمس بها بصوت لا
يكاد يسمع فاقترب وما أن رآها تهمس بها حتى ثار
كالثور فأصعب شئ على أنفسهم أن يسمعونك تتلوا
كتاب الله وإن كانت آية وإن كانت همساً لا يسمعه
فأخذ يضربها بقوة بسلاحه ويركلها ثم يضرب رأسها

برشاشه بقوة ،ضرباً متوالياً حتى سال الدم وغطى
وجهها بالكامل ، يصب الدم على وجهها غزيراً
كالنهر لا يتوقف ، عيناها لا تستطيع فتحهما من
شدة الألم وإن فتحتهما لا ترى إلا الدم القاني ثم
كتم فمها حتى لا يسمع همسها
كعموا الأفواه واقطعوا جسدي قطعة .. قطعة .. لن
تكتموا صوت عقلي وقلبي ولن تزرعوا في قناعات
أخرى ترضيكم .. كعموا الأفواه وأسكتوها لكنّ أسنة
القلوب لن تستطيعوا إسكاتها وإيمان القلوب يضعف
كل قوتكم ويسقط كل أدواتكم وتعذيبكم حتى تزهق
الروح لبارئها فإن استطعتم أن تكعموا العقل والقلب
مني فافعلوا ...

سُجْنَا.. لكنّ عقولنا ملكٌ لنا فالسجن ليس سجن
الأبدان بل سجن العقول فنحن الطلقاء .. مشاعرنا
ملكٌ لنا فنحن أحرار..

وكم من الأفواه قد كُمت لأنها تقول الحق ولا
تخشى الظالم .. وكم من الأيدي نالتهم وهي منهم
فلا عجب إن كان العدو فاعلاً بنا هذا
كل شئ يظلمُ شيئاً فشيئاً من حولها، مع غروب
الشمس رأسها بدأ يتدلى إلى الأسفل وهي تتألم من
كل شئ لكنها لا تقول كلمة آه أبداً لوعدهِ قطعته
على نفسها منذ أول يوم دخلت فيه المعتقل أن لا
ينعم الظالم بآهاتها ... اشتد الأمر وخيم الليل
ونزل إلى الأرض بسواده وعذاب الليل ينوب الآن
عن عذاب النهار .. لا أستطيع أن أفتح عياني من
شدة الألم الذي في رأسي وبدأتُ لحظةً أغيب عن

الحياة وأخرى أعود إليها ثم بعدها استفتت والماء
فوقى يصب غزيراً حتى لا أنعم بلحظة غياب عن
الألم الذي أعاني والجراح التي في رأسي تؤلمني
من شدة الماء الذي يصب فوقها ثم بعد مرور
الوقت وشدة الألم بدأت أعيب من جديد لحظات عن
الحياة فلما لم يجدي الماء نفعاً كلما غبت ضربيني
بالعصا ضربة موجعة يختار من جسدي ما يريد
ضربه فمن يمنعه ...؟
وانقضى النهار على طوله وبطئ انقضاءه واستمر
الليل بعذابه ... وانقضى منه دقائق معدودة
فالشمس التي في الأفق لم تشرق بعد ...
ثم انقضى الليل بأكمله وكنت أظن أنه لن ينقضي
وقد بقي على انقضاءه ليل طويل لن تزول نجومه
قريباً ... حملتني الأرض التي لا أكاد ألامسها ..

وظللتني السماء بشمسها ونجومها .. وشهدت
عذابي وجراحي ... وشرب التراب دمي ودموعي
التي لم تتوقف عن الانهمار مع الماء الجاري على
رأسي طول ليلي حتى انفطر كبدي هماً وحرناً على
ذل أصابني من يد الأعداء البغاة ومالي قوةً
ولاسلحاً أقتل الباغي به وأقطع اليد التي امتدت
بذلي وأسقيه من ألوان العذاب صنوفاً
لكن ورب العزة لن أركع وأذل وإن وطأتم هامتي
بأقدامكم النجسة مراراً وإن امتدت أيديكم الدنيئة
لتضع وجهي في التراب تكراراً وإن ضربتموني
وأوجعتموني وأدميتموني وانتهكتموني وآلمتموني
وأخذتم أعضائي عضواً عضواً عن ديني لن أرجع
وقرآني لن أفتر وجهادي لن أترك ولن أذل ولن
أركع فالنصر بات قريباً وإن ظننتم أو رأيتم أنه بعيداً

والنهاية أقرب مما تتوقعون والموت والذل والصغار
أقرب منكم لأنفسكم فوعد الله حق إن شاء الله ...
يطلع الليل والنهار ويغيبان وهي في مكانها تذوق
صنوف العذاب يتناوبون في تعذيبها وضربها إن
تعب أحدهم أو آذته حرارة الشمس أو أرهقه الليل
الطويل أو طواه الجوع أو اشتدّ به الظمأ يذهب
ليأخذ ما يريد وما يحتاج إليه أو يأتي بطعامه
وشرايه ليأكل ويشرب كالبهائم ليذكرني بجوعي
وعطشي فلا أنساه ويضيع بين الآلام المتعددة التي
أشعر بها ، وبعدها يلتفت إليّ ليضربني بكل ما
أوتي من قوة ...ضربني الأولى ..ثم الثانية ..
والثالثة.. وأخرى .. ثم ..ما لا عدّ له ...
ثم جاء الذي يليه ...حتى أنفخ وجهي فلم أعد
أرى والدم يسيل من كل مكان في جسدي لا أدري

من أين .. ثم أريد أن أتقياً فلا أستطيع مراراً فأبعدوا
الملصق الذي على فمي فتقيأت الدم ولم يكفوا عن
ضربي وأنا أتقياً دماً مرة تلو أخرى ... ثم تركوني
وبعدها أنزلوني وفكوا القيود وجروني من أقدامي
ليسحبوا وجهي على الأرض حتى أوصلوني إلى
الزنزانة فرموني وأغلقوا الباب ورحلوا وكأنّ لا جرم
لهم .

مرمية على الأرض لوحدها تلفظ أنفاسها الأخيرة
وإذا بصوت يوسف يهمس في أذنها لقاءها الأخير
به .. كيف أصف المشاعر في لحظات الغياب ..
حبيبتي كلما نزلت دمعة ومسحتها بأصابعك
فتذكريني يوم مسحت دموعك التي كاللآلئ وضعي
يدك على قلبك لتستعيدي جزءاً مني هو باقي عندك
.. اترك قلبي بكل ما أحمله عندك هنا .. لأنني أريد

أن أدفنه بقلبك حيث المكان الذي بحثت عنه طويلا
ووجدته فأترك أعلى ما أملك في وجودٍ أنتمي إليه
ضعي يدك وتخليها أنها يدي وحفظيني في صدرك
واصبري فيوم اللقاء سيكون قريباً إن شاء الله في
جنات الرحمن.. وضعت يدها على قلبها يا رب لقد
قطع المحبين في شوقهم إليك الطرقات وتقطعت
أوصالهم فيك وخلا كل حبيب إلى حبيبه وأتيناك
بدمائنا وآهاتنا وأرواحنا مبايعين مفارقين الأحباب
فيا وليّ المحبين أقبلني في ركب الشهداء واكتبني
ممن يتنعم بالنظر لوجهك الكريم في جنات النعيم
..

الفصل الثالث عشر

كانت كالوردة التي تشع نوراً ..وردة مضيئة
بابتسامتها ورقتها وحنانها تمشي بين الناس
تعطف على الفقير والمظلوم والصغير لكنها ورده
أنطفأ نورها وتبدد ضوءها كما يتبدد الظلام
ويتلاشى بظهور الشمس .. انطفأت الوردة الجميلة
دهستها الأقدام وتمزقت أوراقها وكان مصيرها
الموت ..

نعطى الحياة ثم تسلب منا لظلم الظالمين وجور
الجائرين وتضيع حينها المسميات ويبقى الواقع
المؤلم والحزن الكسير والجرح الراسي في القلوب ..
وتضيع منا الحياة وتعبّر الدموع عن مرّ السنين ..
قتلوا الفجر البرئ .. لتلحق بركب الشهداء ..

حملتهم هذه الأرض بآلامهم وأحزانهم والآن تضمهم
تحتها وتبتلع أنينهم ودموعهم ... وتبقى الدهاليز
المظلمة الضيقة تحمل أصوات الأنين والصراخ
ومن بين ألواح التعذيب ومن بين الأجساد المعلقة
على الجدران لأيام عديدة وساعاتٍ طويلةٍ ومن بين
أسلاك الكهرباء وضرب العصي ومن بين الجروح
والدماء النازفة ومن بين الجوع والظمأ والوحدة
والغربة والوحشة والألم والعذاب والأنين ودماء
الشهداء ودموع الأباة وقضبان الحديد وأيدي وأقدامٍ
مثقلة مكبلة بالحديد وأكياسٍ سوداء وأنفاسٍ
منقطعة يخرج النور يبدد الظلام يظلل الأرض
فتحملهُ القلوب الصغيرة تحمل الحلم والأمل وتحمل
أنين الأسرى والشهداء في قلوبها الصغيرة حتى
تكبر فتيناناً وفتياتٍ لتحمل رسالة الأنين والجرح

الكسير والثأر للأهل والأصحاب ..

من سراديب الموت تحيا الحرية وتظهر القوة
والإرادة والصبر والقوة من قضبان الأسر تنطلق
الأسود الضارية كالرياح العاتية لا تهزها الجبال
تجابه العدو وتدكهُ دكاً ...

كتبوا في الحياة أسطراً من البطولات وأسطراً تحوي
معاني الألم الذي عاشوه ولكنّ الكلمات لن تسطر
المشاعر المتألّمة ولن تسمع أحداً صدى الآهات
ولن تشعر أحداً بطعنات الألم الموجهة وستبقى
الكلمات مجرد كلمات لكنها لهم معانٍ من الآلام
وحقيقةً من الآهات ودماء تنزف على الصفحات
وبين الكلمات وعلى أوجه الصفحات موتٌ أكيد
...وعذاب تخفيه الجدران وتعجز كل الكلمات أن
تظهره على أوجه الصفحات وتبقى الذكرى الموجهة

تحملها القلوب التي ضاقت بها
الصدور ... لكنها رسالة للأمة .
رسالة محزون ... رسالة الأسرى والشهداء الذين
أعزهم الله بالإسلام وامتحنهم بالأسر وأكرمهم
بخاتمة الشهادة ... رسالة ينطق فيها الألم وينطق
فيها الصمت معلناً نهايته وبدء يوم جديد ليعلم
العالم من حوله أنه مع ألمه لن يصمت ومع عذابه
لن يقهر وبأسره لن يُهزم ولن يُغلب
انتقلوا من على الأرض إلى السماء ... إلى رحاب
الجنة... (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله
أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما
آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا
بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون)
كم من الشهداء سقطوا وكم من الأسرى وقعوا في

الأسر وكم واجهنا من العالم الظالم الصمت فتحت
أنظارهم تمارس أبشع الجرائم ... ولكن جرائم
المحتل حقوق ودفاع عن النفس ودفاعنا عن
أنفسنا وأعراضنا جريمة عالمية وإرهاب دولي يقف
العالم له دقيقة صمت على أرواح قتلاهم وتوضع
له الورود ويكون المكان مزاراً ليتذكر فيه العالم
بشاعة جرائم الإرهابيين الذين يقتلون المدنيين من
الصهاينة ويقوم العالم بأسره يشجب ويستنكر ويندد
ويهدد لهذا العمل الإجرامي الذي لا رحمة فيه حيث
الدماء والجثث والقتلى والدموع والصيحات فالشعب
الفلسطيني يثبت أمام العالم عدم حسن نيته مع
الشعب الصهيوني المسالم الذي يريد العيش على
الأرض بسلام ويغفل العالم عما يريد حين يريد
لمصلحة من يريد

خاتمة

من بين كل الكلمات أختار..
التقت روعي بروحه ...
وأتساءل رُوحُ من التقيت ؟ ...
يتحركُ النبضُ فيّ ... تهيج المشاعر داخلي ...
ويرتبكُ كياني ... وأجدُ تلك الروح التي التقيت جزءاً
من كياني ... تحيا في داخلي ... بين مشاعري
تعيش ... بإحساسي تحيا ... وبقلبي تنبضُ
وتتحرك ... وإذا بها تصرّح عن نفسها إنها روح
الألم الذي عايشته في سنين عمري الطويلة ...
إنها الروح التي تأنّ في داخلي وتبكي .. إنها
الدموع التي أحرمتها الطريق وأخفيها عن الناس

وعن نفسي ، وأكتمُ فيها الآهات وأحرقُ تلك
الدمعات في المآقي وهي معي ...
ليبقى ذلك كله في غطاء الجسد الحيّ وبين تلك
الأضلاع وتحت دثار الحياة أجدُ روح الألم تحيا
وتحت دثار الموت أعيشُ اللحظات وأنين كل أسير
وأنين كل مكروب وأنين الثكالي واليتامى يحيا
بصرخات لا تخفيها الأجساد ولا تمنعها الحياة أن
تقول إني أحيا بروح الألم

للتواصل والنقد ولآرائكم بالكتاب

fhalessa@gmail.com
fs1976hf@hotmail.com